



تفسير
آيات الربا



سيد قطب

دار الشروق

تفسير آيات الرأ

جميع حقوق الطبع محفوظة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

دار الشروق

[illegible]

بِسْمِكَ
قُطِبَ

تَفْسِيرُ
آيَاتِ
الرَّبِّ

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

«الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا
الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا . وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . فَمَنْ جَاءَهُ
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) . يَمْحَقُ
اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ
أَثِيمٍ .» (٢٧٦)

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَاتَّوَا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٢٧٧) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) . وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ . وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .. (٢٨١) .

الوجه الآخر المقابل للصدقة التي عرض دستورها في الدرس الماضي الوجه الكالحي الطالحي هو الربا !
الصدقة عطاء وسماحة ، وطهارة وزكاة ، وتعاون وتكافل ،
والربا شح ، وقذارة وذنس ، وأثرة وفردية ..

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده . ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يسترجحه شيئاً ..

ومن ثم فهو — الربا — الوجه الآخر المقابل للصدقة ..
الوجه الكالحي الطالحي !

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح
الظاهر الجميل الودود ! عرضه عرضاً منفراً ، يكشف عما في
عملية الربا من قبح وشناعة ، ومن جفاف في القلب وشر في
المجتمع ، وفساد في الأرض وهلاك للعباد .

ولم يبلغ من تفضيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية
ما بلغ من تفضيع الربا . .

ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا—
في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى — والله الحكمة
البالغة . فلقد كانت للربا في الجاهلية مفسده وشوره . ولكن
الجوانب الشائنة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية
في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر ،
ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها
كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث . فهذه الحملة المفزعة البادية
في هذه الآيات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها
على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة
في الجاهلية الأولى . ويدرك — من يريد أن يتدبر حكمة الله
وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام — يدرك
اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص
أول مرة . وأمامه اليوم من واقع العالم ما يصدق كل كلمة
تصديقاً حياً مباشراً واقعاً . والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتوكله
تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي ،

في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها .. وتلقى — حقاً — حرباً
من الله تصب عليها النعمة والعذاب . أفراداً وجماعات ، وأماً
وشعوباً ، وهي لا تعتبر ولا تفيق !

وحينما كان السياق يعرض في الدرس السابق دستور الصدقة
كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي
الذي يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه ، وبحسب للبشرية أن
تستمتع بما فيه من رحمة .. في مقابل ذلك النظام الآخر الذي
يقوم على الأساس الربوي الشرير القاسي اللئيم .

إنهما نظامان متقابلان : النظام الإسلامي . والنظام الربوي !
وهما لا يلتقيان في تصور ! ولا يتفقان في أساس ؛ ولا يتوافقان
في نتيجة .. إن كلاهما يقوم على تصور للحياة والأهداف
والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة . وينتهي إلى ثمرة في حياة
الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف .. ومن ثم كانت هذه
الحملة المفزعة ، وكان هذا التهديد الرعب !

إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادي — ونظام الحياة كلها —
على تصور معين يمثل الحق الواقع في هذا الوجود .

يقيم على أساس أن الله — سبحانه — هو خالق هذا الكون
فهو خالق هذه الأرض ، وهو خالق هذا الإنسان .. هو الذي
وهب كل موجود وجوده ..

وأن الله — سبحانه — وهو مالك كل موجود بما أنه هو

موجده - قد استخلف الجنس الإنساني في هذه الأرض ؛
 وممكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات ،
 على عهد منه وشرط . ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى ،
 يصنع فيه ما يشاء كيف شاء . وإنما استخلفه فيه في إطار من
 الحدود الواضحة . استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة
 وفق منهج الله . وحسب شريعته فما وقع منه من
 عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفسق
 التعاقد فهو صحيح نافذ . وما وقع منه مخالفاً لشروط
 التعاقد فهو باطل موقوف . فإذا أنفذه قوة وقسراً فهو إذن ظلم
 واعتداء لا يقره الله ولا يقره المؤمنون بالله . فالحاكمة في الأرض
 - كما هي في الكون كله - لله وحده . والناس حاكمهم
 ومحكومهم - إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله
 ومنهجه ، وليس لهم - في جملتهم - أن يخرجوا عنها ، لأنهم إنما
 هم وكلاء مستخلفون في الأرض بشرط وعهد وليسوا
 ملاكاً خالقين لما في أيديهم من أرزاق .

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله
 فيكون بعضهم أولياء بعض ، وأن يتشفعوا برزق الله الذي
 أعطاهم على أساس هذا التكافل - لا على قاعدة الشيوخ المطلق
 كما تقول الماركسية . ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة -
 فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه .

مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده وفيما يسر، الله له - فلا يكون أحدهم كلاً على أخيه أو على الجماعة وهر قادر كما بينا ذلك من قبل . وجعل الزكاة فريضة في المال محددة . والصدقة تطوعاً غير محددة .

وقد شرط عليهم كذلك أن يلتزموا بجانب القصد والاعتدال ، ويتجنبوا السرف والشطط فيما ينفقون من رزق الله الذي أعطاهم ؛ وفيما يستمتعون به من الطيبات التي أحلها لهم . ومن ثم تظل حاجتهم الاستهلاكية للمال والطيبات محدودة بمحدود الاعتدال . وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة . وبخاصة أن المؤمن مطالب بشمير ماله وتكثيره .

وشرط عليهم أن يلتزموا في تنمية أموالهم وسائل لا ينشأ عنها الأذى للآخرين ؛ ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لحرمان الأرزاق بين العباد ، ودوران المال في الأيدي على أوسع نطاق : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

وكتب عليهم الطهارة في النية والعمل ، والنظافة في الوسيلة والغاية ، وفرض عليهم قيوداً في تنمية المال لا يجعلهم يسلكون إليها سبلاً تؤذي ضمير الفرد وخلقه ، أو تؤذي حياة الجماعة وكيانها^(١).

وأقام هذا كله على أساس التصور الممثل لحقيقة الواقع في

١ - يراجع فصل « سياسة المال » في كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » .

هذا الوجود ؛ وعلى أساس عهد الاستخلاف الذي يحكم كل تصرفات الإنسان المستخلف في هذا الملك العريض .

ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيماني إطلاقاً ؛ ونظام يقوم على تصور آخر . تصور لا نظر فيه لله سبحانه وتعالى . ومن ثم لا رعاية فيه للمبادئ والغايات والأخلاق التي يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها .

إنه يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر . فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء ؛ وهو غير مقيد بعهد من الله ؛ وغير ملزم باتباع أوامر الله !

ثم إن الفرد حر في وسائل حصوله على المال ، وفي طرق تنميته . كما هو حر في التمتع به . غير ملزم في شيء من هذا بعهد من الله أو شرط ؛ وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين . ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا أضاف إلى خزائنه ورصيده ما يستطيع إضافته . وقد تتدخل القوانين الوضعية أحياناً في الحد من حريته هذه - جزئياً - في تحديد سعر الفائدة مثلاً ؛ وفي منع أنواع من الاحتياك والنصب والغصب والنهب والغش والضرر . ولكن هذا التدخل يعود إلى ما يتواءم عليه الناس أنفسهم ، وما تقودهم إليه أهواؤهم ؛ لا إلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلهية !

كذلك يقوم على أساس تصور خاطيء فاسد . هو أن غاية الغايات للوجود الإنساني هي تحصيله للمال - بأية وسيلة -

واستمتاعه به على النحو الذي يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به ؛ ويدوس في الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين !

ثم ينشئ في النهاية نظاماً يسحق البشرية سحقاً ، ويشقيها في حياتها أفراداً وجماعات ودولاً وشعوباً ، لمصلحة حفنة من المرابين ؛ ويحطها أخلاقياً ونفسياً وعصبياً ؛ ويحدث الخلل في دورة المال ونمو الاقتصاد البشري نمواً سويماً .. وينتهي — كما انتهى في العصر الحديث — إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلها في أيدي زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شراً ؛ وشرذمة ممن لا يراعون في البشرية إلا "ولا ذمة" ، ولا يراقبون فيها عهداً ولا حرمة .. وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفراداً ، كما يداينون الحكومات والشعوب — في داخل بلادهم وفي خارجها — وترجع اليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها ، وكند الآدميين وعرقهم ودمائهم ، في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهداً !

وهم لا يملكون المال وحده .. إنما يملكون النفوذ .. ولما لم تكن لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور ديني أو أخلاقي على الإطلاق ؛ بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمثل والمبادئ ؛ فلأنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ المائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولا تقف في طريق جشعهم

وخسة أهدافهم .. وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التي يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه ، حيث تسقط الفلوس في المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالمي وفق مصالحهم المحدودة ، ، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد ، وإلى انحراف الإنتاج الصناعي والاقتصادي كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة المولدين المرابين ، الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية !

والكارثة التي تمت في العصر الحديث - ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية - هي أن هؤلاء المرابين - الذين كانوا يمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أويوت مالية كما يمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية - قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخفية داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها .. سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها .. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحمهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي .. هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول ، والأساس الصحيح الذي لا أساس

غيره للنمو الاقتصادي ؛ وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضاري في الغرب . وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين- غير العاملين- وأنهم إنما يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا رصيد لها من الواقع ؛ وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصادي كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب ، للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمي نفسه . الذي تضطره عصابات المراهبين العالمية لأن يجري جرياناً غير طبيعي ولا سوي . ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! وينحرف عن أن يكون نافعا للبشرية كلها ، إلى أن يكون وقفاً على حفنة من الدثاب قليلة !

إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة — وقد بلغ من سوءه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ؛ وهم قد نشأوا في ظله ، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التي تبثها عصابات المال في كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق . وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعميرون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة «دكتور شاخت» الألماني ومدير بنك الرايخ الألماني سابقاً . وقد كان مما قاله في محاضرة له بدمشق عام ١٩٥٣ أنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جداً من

المرابين . ذلك أن الدائن المرابي يربح دائماً في كل عملية ؛ بينما المدين معرض للربح والخسارة ومن ثم فإن المال كله في النهاية لابد - بالحساب الرياضي - أن يصير الى الذي يربح دائماً ١ وأن هذه النظرية في طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الارض الآن يملكه - ملكاً حقيقياً - بضعة ألوف ، أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك والعمال ، وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجني ثمرة كدهم أولئك الألوف !

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة . . فإن قيام النظام الاقتصادي على الأساس الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة . فإن المرابي يجتهد في الحصول على أكبر فائدة . ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطراب التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة انه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لا يدر عليهم ما يوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شيء . . . عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التي تشتغل فيها الملايين : وتضيق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال فتقل القدرة على الشراء . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطراباً . فيقبل عليه العاملون في

الصناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء . .
وهكذا دواليك^١ تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية .
ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة !

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة
للمرابين . فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة
الأموال التي يقرضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ، فهم
يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل
الأرض لتدخل في جيوب المرابين في النهاية . أما الديون التي
تقرضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات
والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها
للبيوت الربوية كذلك . إذ أن هذه الحكومات تضطر إلى
زيادة الضرائب المختلفة لتسد منها هذه الديون وفوائدها .
وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية
المطاف . . وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد ، ولا يكون
إلا الاستعمار هو نهاية الديون . . ثم تكون الحروب بسبب
الاستعمار !

ونحن هنا - في ظلال القرآن - لانستقصي كل عيوب
النظام الربوي فهذا مجاله بحث مستقل^(١) فنكتفي بهذا القدر
لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى جملة

١ - تراجع البحوث القيمة الدقيقة التي كتبها المسلم العظيم السيد أبو الأمل
المودودي عن الربا وعن أسس الاقتصاد بين الإسلام والمعاصرة ..

حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوي المقيت :

الحقيقة الأولى : - التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوسهم أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوي في مكان . وكل ما يمكن أن يقوله أصحاب الفتاوي من رجال الدين أو غيرهم سوى هذا دجل وخداع . فأساس التصور الإسلامي - كما بينا - يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربوي ، ونتائج العملية في حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم .

والحقيقة الثانية : أن النظام الربوي بلاء على الإنسانية - لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب - بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية والعملية ، وأنه أبشع نظام يمحى سعادة البشرية محققاً ، ويعطل نموها الإنساني المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهري الخداع ، الذي يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادي العام !

والحقيقة الثالثة : أن النظام الأخلاقي والنظام العملي في الإسلام مترابطان تماماً ، وأن الإنسان في كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه ، وأنه مختبر ومبتلى وممتحن في كل نشاط يقوم به في حياته ، ومحاسب عليه في آخرته . فليس هناك نظام أخلاقي وحده ونظام عملي وحده ، وإنما هما معاً يؤلفان نشاط الإنسان ، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن ، وإثم يؤخذ عليه إن أساء . وأن الاقتصاد الإسلامي الناجح لا يقوم بغير أخلاق ، وأن الأخلاق ليست نافلة

يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية .

والحقيقة الرابعة : أن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه ، وشعوره تجاه أخيه في الجماعة ؛ وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبيته من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة . أما في العصر الحديث فإنه يعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار . كي يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحاً مضموناً ، فيؤدي الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين . ومن ثم فهو الدافع المباشر لاستثمار المال في الأفلام القلوة والصحافة القلوة والمراقص والملاهي والرقيق الأبيض وسائر الحرف والاتجاهات التي تحطم أخلاق البشرية تحطيماً . . . والمال المستدان بالربا ليس همه أن ينشئ أنفع المشروعات للبشرية ؛ بل همه أن ينشئ أكثرها ربحاً . ولو كان الربح إنما يجيء من استئارة أحط الغرائز وأقل الميول . . . وهذا هو المشاهد اليوم في أنحاء الأرض . وسببه الأول هو التعامل الربوي !

والحقيقة الخامسة : أن الإسلام نظام متكامل . فهو حين يحرم التعامل الربوي يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه ؛ وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتهي منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل ، بدون مساس بالنمو الاقتصادي والاجتماعي والإنساني المطرد .

والحقيقة السادسة : أن الإسلام — حين يتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص — لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوي ، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعي السليم . ولكنه فقط سيظهرها من لوثة الربا ودنسه . ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة . وفي أول هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

والحقيقة السابعة : — وهي الأهم — ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلماً ، بأن هناك استحالة اعتقادية في أن يحرم الله أمراً لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه ! كما أن هناك استحالة اعتقادية كذلك في أن يكون هناك أمر خبيث ويكون في الوقت ذاته حتماً لقيام الحياة وتقدمها . . فאלله سبحانه هو خالق هذه الحياة ، وهو مستخلف الإنسان فيها ، وهو الأمر بتنميتها وترقيتها ، وهو المرید لهذا كله الموفق إليه . فهناك استحالة إذن في تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله ، شيء لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه . وأن يكون هناك شيء خبيث ، هو حتمي لقيام الحياة ورفيها . . وإنما هو سوء التصور ، وسوء الفهم والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التي دأبت أجيالاً على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادي والعمراني ، وأن النظام الربوي هو النظام الطبيعي . وبث هذا التصور الحادع في مناهل الثقافة العامة ، ومنابع المعرفة الإنسانية في

مشارك الأرض ومغارها . . ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلاً بسعي بيوت المال والمرايين . وصعوبة تصور قيامها على أساس آخر . وهي صعوبة تنشأ أولاً من عدم الإيمان . كما تنشأ ثانياً من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذي اجتهد المرابون في بثه وتمكينه بما لهم من قدرة على التوجيه ، وملكية للنفوذ داخل الحكومات العالمية . وملكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة .

والحقيقة الثامنة : أن استحالة قيام الاقتصاد العالمي اليوم وغداً على أساس غير الأساس الربوي . . ليست سوى خرافة . أو هي أكلوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التي يستخدمها أصحاب المصلحة في بقائها أجهزة ضخمة فعلاً ! وأنه حين تصح النية ، وتعزم البشرية - أو تعزم الأمة المسلمة - أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية ، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع . فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد ، الذي أراده الله للبشرية ، والذي طبق فعلاً ، ونمت الحياة في ظله فعلاً ، وما تزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفي ظلاله ، لو عقل الناس ورشدوا !

وليس هنا مجال تفصيل القول في كفايات التطبيق ووسائله . فحسبنا هذه الإشارات المجللة ^(١) وقد تبين أن شناعة العملية

١ - يمكن الرجوع الى بعض الاقتراحات العلمية في بحوث الأستاذ المودودي التي سبقَت الإشارة إليها .

الربوية ليست ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية ؛ وأن الإنسانية التي انحرفت عن النهج قديماً حتى ردها الإسلام إليه ؛ هي الإنسانية التي تنحرف اليوم الانحراف ذاته ، ولاتفيء إلى النهج القويم الرحيم السليم .

فلنتظر كيف كانت ثورة الإسلام على تلك الشناعة التي ذاقنا منها البشرية ما لم تدق قط من بلاء :

* * *

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . محقق الله الربا ويربي الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » . .

إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب :

« لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . . وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة . . صورة المسوس المصروع . وهي صورة معروفة معهودة للناس . فالنص يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ؛ وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عاداتهم في نظامهم الاقتصادي ؛ ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة . وهي

وسيلة في التأثير التربوي ناجعة في مواضعها . بينما هي في الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة . . ولقد مضت معظم التفسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث . ولكن هذه الصورة — فيما نرى — واقعة بذاتها في حياة البشرية في هذه الأرض أيضاً . ثم إنها تتفق مع ما سيأتي بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله . ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التي تتخبط كالمسوس في عقابيل النظام الربوي . وقبل أن نفصل القول في مصداق هذه الحقيقة من واقع البشرية اليوم نبدأ بعرض الصورة الربوية التي كان يواجهها القرآن في الجزيرة العربية ؛ وتصورات أهل الجاهلية عنها ..

إن الربا الذي كان معروفاً في الجاهلية والذي نزلت هذه الآيات وغيرها لإبطاله ابتداء كانت له صورتان رئيسيتان : ربا النسئة ، وربا الفضل .

فأما ربا النسئة فقد قال عنه قتادة : « إن ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه » .

وقال مجاهد : « كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين ، فيقول : لك كذا وكذا تؤخر عني . فيؤخر عنه » .

وقال أبو بكر الجصاص : « إنه معلوم أن ربا الجاهلية إنما

كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة . فكانت الزيادة بدلاً من الأجل . فأبطله الله تعالى .

وقال الإمام الرازي في تفسيره : « إن ربا النسئة هو الذي كان مشهوراً في الجاهلية . لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدر معيناً ، ورأس المال باق بحاله . فإذا حل طالبه برأس ماله . فلن تعلق عليه الأداء زاده في الحق والأجل . »

وقد ورد في حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : « لا ربا إلا في النسئة » ..

أما ربا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشيء بالشيء من نوعه مع زيادة . كبيع الذهب بالذهب . والدراهم بالدراهم . والقمح بالقمح ، والشعير بالشعير .. وهكذا .. وقد ألحق هذا النوع بالربا لما فيه من شبه به ، ولما يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا .. وهذه النقطة شديدة الأهمية لنا في الكلام عن العمليات الحاضرة !

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « الذهب بالذهب والنفضة بالنفضة والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح .. مثلاً بمثل .. يداً بيد .. فمن زاد

١ - رواه البخاري ومسلم .

أو استراد فقد أربى الآخذ والمعطي فيه سواء (١) » . .

وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : « جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر برني فقال له النبي ﷺ : « من أين هذا ؟ قال : كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع . فقال : أوّه ! عين الربا . عين الربا . لا تفعل . ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ، ثم اشتر به (٢) » .

فأما النوع الأول فالربا ظاهر فيه لا يحتاج إلى بيان إذ تتوافر فيه العناصر الأساسية لكل عملية ربوية . وهي : الزيادة على أصل المال . والأجل الذي من أجله تؤدي هذه الزيادة . وكون هذه الفائدة شرطاً مضموناً في التعاقد . أي ولادة المال للمال بسبب المدة ليس إلا . .

وأما النوع الثاني ، فمما لا شك فيه أن هناك فروقاً أساسية في الشيتين المتماثلين هي التي تقتضي الزيادة . وذلك واضح في حادثة بلال حين أعطى صاعين من تمره الرديء وأخذ صاعاً من التمر الجيد . . ولكن لأن تماثل النوعين في الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية ، إذ يلد التمر التمر ! فقد وصفه ﷺ بالربا . ونهى عنه . وأمر ببيع الصنف المراد استبداله بالنقد . ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضاً . إبعاداً لشيخ الربا من العملية تماماً !

١ - رواه الشيخان .

٢ - متفق عليه .

وكذلك شرط القبض : « بدأ بيد » .. كي لا يكون التأجيل في بيع المثل بالمثل ، ولو من غير زيادة ، فيه شبح من الربا ، وعنصر من عناصره !

إلى هذا الحد بلغت حساسية الرسول ﷺ بشبح الربا في أية عملية . وبلغت كذلك حكمته في علاج عقلية الربا التي كانت سائدة في الجاهلية .

فأما اليوم فيريد بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية والنظم الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا - ربا النسيئة - بالاستناد إلى حديث أسامة ، وإلى وصف السلف للعمليات الربوية في الجاهلية . وأن يحلوا - دينياً - وباسم الإسلام ! - الصور الأخرى المستحدثة التي لا تنطبق في حرفة منها على ربا الجاهلية !

ولكن هذه المحاولة لا تريد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية . فالإسلام ليس نظام شكليات إنما هو نظام يقوم على تصور أصيل . فهو حين حرم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة . إنما كان يناهض تصوراً يخالف تصوره ؛ ويحارب عقلية لا تتماشى مع عقليته . وكان شديد الحساسية في هذا إلى حد تحريم ربا الفضل لإبعاداً لشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جداً !

ومن ثم فإن كل عملية ربوية حرام ، سواء جاءت في الصور التي عرفت الجاهلية أم استحدثت لها أشكال جديدة .

ما دامت تتضمن العناصر الأساسية للعملية الربوية ، أو تنسم
بسمه العقلية الربوية .. وهي عقلية الأثرة والجشع والفردية
والمقامرة . وما دام يتلبس بها ذلك الشعور الخبيث . شعور
الحصول على الربح بأية وسيلة !

فينبغي أن نعرف هذه الحقيقة جيداً . ونستيقن من الحرب
المعلنة من الله ورسوله على المجتمع الربوي .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه
الشيطان من المس » ..

والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة
الربوية وحدهم - وإن كانوا هم أول المهديين بهذا النص
الرعب - إنما هم أهل المجتمع الربوي كلهم .

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أنه قال : لَعَنَ
رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله ، وشاهديه وكاتبه ،
وقال : « هم سواء » (١) .

وكان هذا في العمليات الربوية الفردية . فأما في المجتمع
الذي يقوم كله على الأساس الربوي فأهله كلهم ملعونون .
معرضون لحرب الله ، مطرودون من رحمته بلا جدال .

لأنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة المسوس

١ - رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي .

المضطرب القلب المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة . . وإذا كان هناك شك في الماضي أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية ، فإن تجربة هذه القرون لا تبقى مجالا للشك أبداً . .

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم — في أنحاء الأرض — هو عالم الاضطراب والقلق والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية — باعتراف عقلاء أهله ومفكره وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين والعابرين لأقطار الحضارة الغربية . . وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار . . ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب ، والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك .

إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزالها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المادي ، ولا يسر الحياة المادية وخفضها ولينها في بقاع كثيرة . وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ في النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة ؟

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ، ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى ! حقيقة أن الناس في أكثر بلاد الأرض رخاء عاماً . . في أمريكا ، وفي السويد ، وفي غيرهما من الأقطار التي تفيض رخاء مادياً . . أن الناس ليسوا

سعداء .. أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء !
 وأن الملل أكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج ! وأنهم
 يفرقون هذا الملل في العريضة والصحب تارة . وفي « التقاليع »
 الغريبة الشاذة تارة . وفي الشذوذ الجنسي والنفسي تارة . ثم
 يحسون بالحاجة إلى الحرب . الحرب من أنفسهم . ومن الخواء
 الذي يعيش فيها ! ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر
 من مرافق الحياة وجرياتها . فيهربون بالانتحار . ويهربون
 بالحنون . ويهربون بالشذوذ ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء
 والفراغ ولا يدعهم يستريحون أبداً !

لماذا ؟

السبب الرئيسي طبعاً هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة
 المعذبة الضالة المنكودة — على كل ما لديها من الرخاء المادي —
 من زاد الروح .. من الإيمان .. من الاطمئنان إلى الله ..
 وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها
 الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه .

ويتفرع من ذلك السبب الرئيسي الكبير .. بلاء الربا ..
 بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سويّاً معتدلاً بحيث
 تنوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها . إنما ينمو
 مائلاً جانحاً إلى حفنة الممولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب
 الضخمة في المصارف ، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة
 المحددة المضمونة ؛ ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير

في طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وجاجاتهم التي يسعد بها الجميع ، والتي تكفل عملاً منتظماً للجميع ؛ والتي تهيب طمأنينة نفسية وضمانات اجتماعية للجميع . . ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح ، ولو حطم الملايين وحرّم الملايين وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق والخوف في حياة البشرية جميعاً !

وصدق الله العظيم : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . . وها نحن أولاء نرى مصداق هذه الحقيقة في واقعنا العالمي اليوم !

ولقد اعترض المرابون في عهد رسول الله ﷺ على تحريم الربا . اعترضوا بأنه ليس هناك مبرر لتحريم العمليات الربوية وتحليل العمليات التجارية :

« ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرّم الربا »

وكانت الشبهة التي ركنوا إليها ، هي أن البيع يحقق فائدة وربحاً ، كما أن الربا يحقق فائدة وربحاً . . وهي شبهة واهية . فالعمليات التجارية قابلة للربح والخسارة . والمهارة الشخصية والجهد الشخصي والظروف الطبيعية الجارية في الحياة هي التي تتحكم في الربح والخسارة . أما العمليات الربوية فهي محددة الربح في كل حالة . وهذا هو الفارق الرئيسي . وهذا هو مناط التحريم والتحليل .

إن كل عملية يتضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية
ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديدته .. ولا مجال
للمباحة في هذا ولالمدافعة !

« وأحل الله البيع وحرم الربا » ..

لا نفاء هذا العنصر من البيع ؛ ولأسباب أخرى كثيرة
تجعل عمليات التجارة في أصلها نافعة للحياة البشرية ؛ وعمليات
الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية ^(١) .

وقد عالج الإسلام الأوضاع التي كانت حاضرة في ذلك
الزمان معالجة واقعية ؛ دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية :

« فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره
إلى الله » ..

لقد جعل سريان نظامه منذ ابتداء تشريعه . فمن سمع
موعظة ربه فانتهى فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا
وأمره فيه إلى الله ، يحكم فيه بما يراه .. وهذا التعبير يوحى
للقلب بأن النجاة من سالف هذا الإثم مرهونة بإرادة الله
ورحمته ، فيظل يتوجس من الأمر ؛ حتى يقول لنفسه : كفاني
هذا الرصيد من العمل السيئ ، ولعل الله أن يعفني من جرائمه
إذا أنا انتهيت وتبت . فلا أضيف إليه جديداً بعد ! .. وهكذا

١ - تراجع البحوث القيمة في هذه الموضوعات : للأستاذ المودودي
وقد سبقت الإشارة إليها .

يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد .

« وَمَنْ عَادْ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » . .

وهذا التهديد بحقيقة العذاب في الآخرة يقوي ملامح المنهج التربوي الذي أشرنا إليه ، ويعمقه في القلوب !

ولكن لعل كثيرين يغريهم طول الأمد ، وجهل الموعد فيبعدون من حسابهم حساب الآخرة هذا ! فهاهو ذا القرآن ينذرهم كذلك بالمحق في الدنيا والآخرة جميعاً ؛ ويقرر أن الصدقات - لا الربا - هي التي تربو وتزكو ؛ ثم يصم الذين لا يستجيبون بالكفر والإثم . ويلوح لهم بكرة الله للكفرة الآثمين .

« يحق الله الربا ، ويربي الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم » . .

وصديق وعيد الله ووعده . فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو طمأنينة . . إن الله يحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين - في ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجاً وموارد موفورة ولكن البركة ليست بضمخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الآمن بهذه الموارد . وقد أشرنا من قبل إلى الشقوة النكدة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة الموارد ؛ وإلى

القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده . ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب المبيدة ، كما تصحو وتنام في هم الحرب الباردة ! وتثقل الحياة على أعصاب الناس يوماً بعد يوم — سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا — ولا يبارك لهم في مال ولا في عمر ولا في صحة ولا في طمأنينة بسال !

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون — الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع — وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع دائماً إلى فضل الله وثوابه ، والاطمئنان دائماً إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها . . ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله — أفراداً وجماعات — في مالهم ورزقهم ، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم .

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية ، هم الذين لا يريدون أن يروا ، لأن لهم هوى في عدم الرؤية ! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبتوثة عمداً وقصداً من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت ، فضعفوا عن رؤية الحقيقة !

« والله لا يحب كل كفار أثيم » . .

وهذا التعقيب هنا قاطع في اعتبار من يصرون على التعامل

الربوبي — بعد تحريمه — من الكفار الآثمين ، الذين لا يحبهم الله . وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم ، ولو قالوا بألستهم ألف مرة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . . فالإسلام ليس كلمة باللسان ؛ إنما هو نظام حياة ومنهج عمل ؛ وإنكار جزء منه كإنكار الكل . . وليس في حرمة الربا شبهة ؛ وليس في اعتباره حلالاً وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم . . والعياذ بالله . .

* * *

وفي الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والإثم ، والتهديد الساحق لأصحاب منهج الربا ونظامه ، يعرض صفحة الإيمان والعمل الصالح ، وخصائص الجماعة المؤمنة في هذا الجانب ، وقاعدة الحياة المرتكزة إلى النظام الآخر — نظام الزكاة — المقابل لنظام الربا :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

والعنصر البارز في هذه الصفحة هو عنصر « الزكاة » . عنصر البذل بلا عوض ولا رد . والسياق يعرض بهذا صفة المؤمنين وقاعدة المجتمع المؤمن . ثم يعرض صورة الأمن والطمأنينة والرضى الإلهي المسبغ على هذا المجتمع المؤمن .

إن الزكاة هي قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن؛ الذي لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوي في أي جانب من جوانب حياته .

وقد بهتت صورة « الزكاة » في حسنا وحسن الأجيال التعيسة من الأمة الإسلامية التي لم تشهد نظام الإسلام مطبقاً في عالم الواقع ؛ ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيماني والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة ، ثم يقيم لها النظام الذي تنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلها العالية . ويجعل « الزكاة » قاعدة هذا النظام ، في مقابل نظام الجاهلية الذي يقوم على القاعدة الربوية . ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقي عن طريق الجهد الفردي ، أو التعاون البريء من الربا !

بهتت هذه الصورة في حس هذه الأجيال التعيسة المنكودة الحظ التي لم تشهد تلك الصورة الرفيعة من صور الإنسانية . إنما ولدت وعاشت في غمرة النظام المادي ، القائم على الأساس الربوي . وشهدت الكزازة والشح . والتكالب والتطاحن والفردية والأثرة التي تحكم ضمانات الناس . فتجعل المال لا ينتقل إلى من يحتاجون إليه إلا في الصورة الربوية الخسيسة ! وجعلت الناس يعيشون بلا ضمانات ، ما لم يكن لهم رصيد من المال ، أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم في مؤسسات التأمين الربوية وجعلت التجارة والصناعة لا تجد المال الذي تقوم به ، ما لم

تحصل عليه بالطريقة الربوية ! فوقر في حس هذه الأجيال المنكودة الطالع أنه ليس هناك نظام إلا هذا النظام ؛ وأن الحياة لا تقوم إلا على هذا الأساس !

بهت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحساناً فردياً هزياً ، لا ينهض على أساسه نظام عصري ! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة ، وهي تتناول اثنين ونصفاً في المائة من أصل رؤوس الأموال الأهلية مع ربها^(١) يؤديها الناس الذين يصنعهم الإسلام صناعة خاصة ، ويربهم تربية خاصة ، بالتوجيهات والتشريعات ، وبنظام الحياة الخاص الذي يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه ! وتحصلها الدولة المسلمة ، حقاً مفروضاً ، لا إحساناً فردياً ، وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ؛ حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة في كل حالة ؛ وحيث يقضى عن الغارم المدين دينه سواء كان ديناً تجارياً أو غير تجاري ، من حصيلة الزكاة .

وليس المهم هو شكلية النظام ، إنما المهم هو روحه . فالمجتمع الذي يريه الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته ونظامه ، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته ، متكامل مع التشريعات والتوجيهات ، ينبع التكافل من ضمائره ومن تنظيماته معاً

١ - ترتفع هذه النسبة الى ٥ بالمائة والى ١٠ بالمائة والى ٢٠ بالمائة في الزروع والكنوز .

متناسقة متكاملة . وهذه حقيقة قد لا يتصورها الذين نشأوا وعاشوا في ظل الأنظمة المادية الأخرى . ولكنها حقيقة نعرفها نحن - أهل الإسلام - وثقلوها بذوقنا الإيمانى . فإذا كانوا هم محرومين من هذا الدوق لسوء طالعهم ونكد حظهم - وحظ البشرية التي صارت اليهم مقاليدها وقيادتها - فليكن هذا نصيبهم ؛ وليحرموا من هذا الخير الذي ييشر الله به : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .. » ليحرموا من الطمأنينة والرضى ، فوق حرمانهم من الأجر والثواب . فإذا ببهاالتهم وجاهليتهم وضلالهم وعنادهم يحرمون !

إن الله - سبحانه - يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون ، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده .. ويعدهم بالأمن فلا يخافون وبالسعادة فلا يحزنون :

« فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

في الوقت الذي يوعد أكالة الربا والمجتمع الربوي بالمحق والسحق ، وبالتخيبط والضلال ، وبالقلق والخوف ..

وشهدت البشرية ذلك واقعاً في المجتمع المسلم ؛ وتشهد اليوم هذا واقعاً كذلك في المجتمع الربوي ! ولو كنا نملك أن نمسك بكل قلب غافل فنهزه هزاً عنيفاً حتى يستيقظ لهذه الحقيقة الماثلة ؛ ونمسك بكل عين مغمضة فنفتح جفניה

على هذا الواقع . . لو كنا نملك لفعلنا . . ولكننا لا نملك
إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة ؛ لعل الله أن يهدي البشرية
المنكودة الطالع إليها . . والقلوب بين أصبعين من أصابع
الرحمان . والهدى هدى الله . .

* * *

وفي ظل هذا الرخاء الآمن يعد الله به الجماعة المسلمة ، التي
تنبذ الربا من حياتها ، فتنبذ الكفر والإثم ، وتقيم هذه الحياة
على الإيمان والعمل الصالح والعبادة والزكاة . . في ظل
هذا الرخاء الآمن يهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير ليحولوا
حياتهم عن النظام الربوي الدنس المقيت ؛ وإلا فهي الحرب
المعلنة من الله ورسوله ، بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقي من الربا .
إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله .
وإن تبتم فلكنم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ..

إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا .
فهم ليسوا بمؤمنين إلا أن يتقوا الله ويلذوا ما بقي من الربا .
ليسوا بمؤمنين ولو أعلنوا أنهم مؤمنون . فإنه لا إيمان بغير
طاعة واتباع لما أمر الله به . والنص القرآني لا يدعمهم
في شبهة من الأمر . ولا يدع إنساناً يتستر وراء كلمة الإيمان
بينما هو لا يطيع ولا يرتضي ما شرع الله ، ولا ينفذه في

حياته ، ولا يحكمه في معاملاته . فالذين يفرقون في الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين . مهما ادعوا الإيمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون !

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا . . إن كنتم مؤمنين » . .

لقد ترك لهم ما سلف من الربا — لم يقرر استرداده منهم ، ولا مصادرة أموالهم كلها أو جزءاً منها بسبب أن الربا كان داخلياً فيها . . إذ لا تحريم بغير نص . . ولا حكم بغير تشريع . . والتشريع ينفذ وينشئ آثاره بعد صدوره . . فأما الذي سلف فأمره إلى الله لا إلى أحكام القانون . وبذلك تجنب الإسلام إحداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريعته أثراً رجعياً . وهو المبدأ الذي أخذ به التشريع الحديث حديثاً ! ذلك أن التشريع الإسلامي موضوع ليوواجه حياة البشر الواقعية ، ويسيرها ، ويظهرها ، ويطلقها تنمو وترتفع معاً . . وفي الوقت ذاته علق اعتبارهم مؤمنين على قبولهم لهذا التشريع وإنفاذه في حياتهم منذ نزوله وعلمهم به . واستجاش في قلوبهم — مع هذا — شعور التقوى لله . وهو الشعور الذي ينوط به الإسلام تنفيذ شرائعه ، ويجعله الضمان الكامن في ذات الأنفس ، فوق الضمانات المكفولة بالتشريع ذاته . فيكون له من ضمانات التنفيذ ما ليس للشرائع الوضعية التي لا تستند إلا للرقابة الخارجية ! وما أيسر الاحتيال على الرقابة الخارجية ،

حين لا يقوم من الضمير حارس له من تقوى الله سلطان .
فهذه صفحة الترهيب .. وإلى جوارها صفحة الترهيب ..
الترهيب الذي يزلزل القلوب :

« فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ..

يا للهول ! حرب من الله ورسوله .. حرب تواجهها
النفس البشرية .. حرب رهيبة معروفة المصير ، مقررة
العاقبة .. فأين الإنسان الضعيف القاني من تلك القوة الجبارة
الساحقة الماحقة ؟ !

ولقد أمر رسول الله ﷺ عامله على مكة بعد نزول هذه
الآيات التي نزلت متأخرة أن يحارب آل المغيرة هناك إذا لم
يكفوا عن التعامل الالبوي . ولقد أمر ﷺ في خطبته يوم فتح
مكة بوضع كل ربا في الجاهلية - وأوله ربا عمه العباس - عن
كاهل المدينين الذين ظلوا يحملونه إلى ما بعد الإسلام بفترة
طويلة ، حتى نضج المجتمع المسلم ، واستقرت قواعده ، وحن
أن ينتقل نظامه الاقتصادي كله من قاعدة الربا الوبيثة . وقال
ﷺ في هذه الخطبة :

« وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين . وأول
ربا أضع ربا العباس » .. ولم يأمرهم برد الزيادات التي سبق
لهم أخذها في حال الجاهلية .

فالإمام مكلف - حين يقوم المجتمع الإسلامي - أن

محارب الذين يصرون على قاعدة النظام الربوي ، ويعتون عن أمر الله ، ولو أعلنوا أنهم مسلمون ، كما حارب أبو بكر — رضي الله عنه — مانعي الزكاة ، مع شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامتهم للصلاة . فليس مسلماً من يأبى طاعة شريعة الله ولا ينفذها في واقع الحياة !

على أن الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام . فهذه الحرب معلنة — كما قال أصدق القائلين — على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي . هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة . وهي حرب على الأعصاب والقلوب . وحرب على البركة والرخاء . وحرب على السعادة والطمأنينة . حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض . حرب المطاردة والمشاكسة . حرب الغبن والظلم . حرب القلق والخوف . . وأخيراً حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول . الحرب الساحقة الملاحقة التي تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوي المقيت . فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر . وهم يلقون شبابهم فتقع فيها الشركات والصناعات . ثم تقع فيها الشعوب والحكومات . ثم يتراحمون على القرائس فتقوم الحرب ! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب ! أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم ، فيعم الفقر والسخط بين

الكادحين والمنتجين ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب ! وأيسر ما يقع - إن لم يقع هذا كله - هو خراب النفوس وانهار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتخطم الكيان البشري من أساسه ، وتدميره بما لا تبلغه أفضع الحروب الذوية الرعية !

إنها الحرب المشبوبة دائماً . وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا . . وهي مسعرة الآن تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية الضالة ؛ وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادي الذي تخرجه المصانع . . وكانت هذه التلال حرة بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكي طاهر ؛ ولكنها - وهي تخرج من منبع الريح الملوثة - لا تمثل سوى ركाम يخنق أنفاس البشرية ، ويسحقها سحقاً ؛ في حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالمين ، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملون !

لقد دعا الإسلام الجماعة المسلمة الأولى ، ولا يزال يدعو البشرية كلها إلى التشريع الطاهر النظيف وإلى التوبة من الإثم والخطيئة والمنهج الوبيء :

« وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم . لا تظلمون ولا تُظلمون » . .

فهي التوبة عن خطيئة . إنها خطيئة الجاهلية . الجاهلية التي لا تتعلق بزمان دون زمان ، ولا نظام دون نظام . . إنما هي

الانحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان . .
خطيئة تنشيء آثارها في مشاعر الأفراد وفي أخلاقهم وفي
تصورهم للحياة . وتنشيء آثارها في حياة الجماعة وارتباطاتها
العامّة . وتنشيء آثارها في الحياة البشرية كلها ، وفي نموها
الاقتصادي ذاته . ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين ، أنها
وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادي !

واسترداد رأس المال مجرداً ، عدالة لا يظلم فيها دائن ولا
مدين . . فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة .
لها وسيلة الجهد الفردي . ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة
وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه ، ومقاسمته الربح والخسارة .
ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق — بدون
سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح — وتناول الأرباح الحلال
من هذا الوجه . ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة على أن
تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال
التجارية مباشرة أو غير مباشرة — ولا تعطىها بالفائدة الثابتة —
ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا
فرض ووقت . . وللمصارف أن تتناول قدرأ معيناً من
الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال . . ووسائل كثيرة ليس
هنا مجال تفصيلها . . وهي ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب ،
وتصح التيات على ورود المورد التنظيف الطاهر ، وتجنب
المورد العفن النتن الآسن^(١).

١ - تراجع بحوث الأستاذ المودودي التي سبقت الإشارة إليها .

ويكمل السياق الأحكام المتعلقة بالدين في حالة الإعسار .
فليس السبيل هو ربا النسئة : بالتأجيل مقابل الزيادة . . ولكنه
هو الإنظار إلى ميسرة . والتحبب في التصديق به لمن يريد
مزيداً من الخير أوفى وأعلى :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا
خير لكم . . إن كنتم تعلمون » . .

إنها السماحة الندية التي يحملها الإسلام للبشرية . إنه
الظل الظليل الذي تأوي إليه البشرية المتعبة في هجير الأثرة
والشح والطمع والتكالب والسعار . إنها الرحمة للدائن والمدين
والمجتمع الذي يظل الجميع !

ونحن نعرف أن هذه الكلمات لا تؤدي مفهوماً « مقولاً »
في عقول المناكيد الناشئين في هجير الجاهلية المادية الحاضرة !
وأن مذاقها الحلو لا طعم له في حسم المتحجر البليد .
— وبخاصة وحوش المرايين سواء كانوا أفراداً قابعين في زوايا
الأرض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين
تحل بهم المصائب فيحتاجون للمال ، للطعام والكساء والدواء ،
أو لدفن موتاهم في بعض الأحيان ، فلا يجدون في هذا العالم
المادي الكثر الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ،
فيلجأون مرغمين إلى أوكار الوحوش ، فرائس سهلة تسعى
إلى الفخاخ بأقدامها . تدفعها الحاجة وترجيها الضرورة ! سواء
كانوا أفراداً هكذا أو كانوا في صورة بيوت مالية ومصارف

ربوية . فكلهم سواء . غير أن هؤلاء يجلسون في المكاتب
القضمة على المقاعد المريحة ؛ ووراءهم ركام من النظريات
الاقتصادية ، والمؤلفات العلمية ، والأساتذة والمعاهد والجامعات
والتشريعات والقوانين ، والشرطة والمحاكم والجيش ..
كلها قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتهم ، وأخذ من يجرؤ على
التكبر في رد الفائدة الربوية إلى خزائنها باسم القانون .. !!

نحن نعرف أن هذه الكلمات لا تصل إلى تلك القلوب ..
ولكننا نعرف أنها الحق . ونثق أن سعادة البشرية مرهونة
بالاستماع إليها والأخذ بها :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا
خير لكم إن كنتم تعلمون » .

إن المعسر — في الإسلام — لا يطارد من صاحب الدين ، أو
من القانون والمحاكم . إنما ينظر حتى يوسر .. ثم إن المجتمع
المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين . فإله يدعو صاحب
الدين أن يتصدق بدينه — إن تطوع بهذا الخير . وهو خير لنفسه
كما هو خير للمدين . وهو خير للجماعة كلها ولحياتها
المتكافلة . لو كان يعلم ما يعلمه الله من سريرة هذا الأمر !

ذلك أن إبطال الربا يفقد شرطاً كبيراً من حكمته إذا كان
الدائن سيروح يضايق المدين ، ويضيق عليه الخناق ، وهو معسر
لا يملك السداد . فهنا كان الأمر — في صورة شرط وجواب

بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء . وكان بجانبه التحبيب
في التصديق بالدين كله أو بعضه عند الإعسار .

على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظاً من
مصارف الزكاة ، ليؤدي دينه ، ويسر حياته : « إنما
الصدقات للفقراء والمساكين .. والغارمين ... » وهم
أصحاب الديون . الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم وعلى
لذائدهم . إنما أنفقوها في الطيب النظيف . ثم قعدت بهم
الظروف !

ثم يجيء التعقيب العميق الإيحاء ، الذي ترجف منه النفس
المؤمننة ، وتتمنى لو تنزل عن الدين كله ، ثم تمضي ناجية
من الله يوم الحساب :

« واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس
ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ..

واليوم الذي يرجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس
ما كسبت يوم عسير ، له في القلب المؤمن وقع ، ومشهده
حاضر في ضمير المؤمن ، وله في ضمير المؤمن هول . والوقوف
بين يدي الله في هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان !

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات . جو الأخذ
والعطاء .. جو الكسب والجزاء .. إنه التصفية الكبرى للماضي
جميعه بكل ما فيه . والقضاء الأخير في الماضي بين كل من

فيه . فما أجدر القلب المؤمن أن يحشاه وأن يتوقاه .

إن التقوى هي الحارس القابع في أعماق الضمير ؛ يقيمه
الإسلام هناك لا يملك القلب فراراً منه لأنه في الأعماق
هناك !

لأنه الإسلام .. النظام القوي .. الحلم الندي الممثل في
واقع أرضي .. رحمة الله بالبشر . وتكريم الله للإنسان .
والخير الذي تشرد عنه البشرية ؛ ويصدها عنه أعداء الله
وأعداء الإنسان !



مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ
لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)
وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا
اللَّهُ ؟ - وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ
جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) . ،

تجيب هذه التوجيهات كلها قبل الدخول في سياق المعركة الحربية ، لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة : الوحدة والشمول في مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كله ، ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة لله والعبودية له ، والتوجه إليه بالأمر كله ، والوحدة والشمول في منهج الله وهيمته على الكينونة البشرية في كل حال من أحوالها ، وفي كل شأن من شؤونها ، وفي كل جانب من جوانب نشاطها ، ثم تشير تلك التوجيهات بتجمعها هذا إلى الترابط بين كل ألوان النشاط الإنساني ، وتأثير هذا الترابط في النتائج الأخيرة لسعي الإنسان كله ، كما أسلفنا .

والمنهج الإسلامي يأخذ النفس من أقطارها ، وينظم حياة الجماعة جملة لا تفارق . ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ، وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب ، والسيطرة على الأهواء والشهوات ، وإشاعة الود والسماحة في الجماعة . . فكلها قريب من قريب . . وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات ، وكل توجيه من هذه التوجيهات ، يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الجماعة المسلمة ، وبكل مقدراتها في ميدان المعركة وفي سائر ميادين الحياة !

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

ولقد سبق الحديث عن الربا والنظام الربوي بالتفصيل في الجزء الثالث من هذه الظلال^(١) فلا نكرر الحديث عنه هنا . . . ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة . فإن قوماً يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ، ويتداروا به ، ليقولوا : إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة ، أما الأربعة في المئة و السبعة والتسعة . . فليست أضعافاً مضاعفة . وليست داخلية في نطاق التحريم !

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع وليست شرطاً يتعلق به الحكم ، والنص الذي في سورة البقرة قاطع في حرمة أصل الربا — بلا تحديد ولا تقييد — : « وذروا ما بقي من الربا » .. أياً كان !

فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف ، لنقول : إنه في الحقيقة ليس وصفاً تاريخياً فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة ، والتي قصد إليها النهي هنا بالذات . إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي المقيت ، أياً كان سعر الفائدة .

إن النظام الربوي معناه إقامة دورة المال كلها على هذه

١ - ص ٧٠ الى ص ٨٦ من الجزء الثالث من ظلال القرآن ط٢ منقحة .

القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهي عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى . فهي تنشئ مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافاً مضاعفة بلا جدال .

إن النظام الربوي يحقق بطبيعته دائماً هذا الوصف . فليس هو مقصوراً على العمليات التي كانت متبعة في جزيرة العرب . إنما هو وصف ملازم للنظام في كل زمان .

ومن شأن هذا النظام أن يفسد الحياة النفسية والحلقية — كما فصلنا ذلك في الجزء الثالث — كما أن من شأنه أن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية — كما فصلنا ذلك أيضاً — ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها ، وتأثيره في مصائرنا جميعاً .

والإسلام — وهو ينشئ الأمة المسلمة — كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والحلقية ، كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية . وأثر هذا وذلك في نتائج المعارك التي تخوضها الأمة معروف . فالنهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهوماً في هذا المنهج الشامل البصير .

أما التعقيب على هذا النهي بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح ، واثقاء النار التي أعدت للكافرين .. أما التعقيب بهاتين اللامستين فمفهوم كذلك ، وهو أنسب تعقيب :

لأنه لا يأكل الربا إنسان يتقي الله ويخاف النار التي أعدت للكافرين .. ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله ، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين .. والإيمان ليس كلمة تقال باللسان ، إنما هو اتباع للمنهج الذي جعله الله ترجمة عملية واقعية لهذا الإيمان وجعل الإيمان مقدمة لتحقيقه في الحياة الواقعية ، وتكييف حياة المجتمع وفق مقتضياته .

ومحال أن يجتمع إيمان ونظام ربوي في مكان . وحيثما قام النظام الربوي فهناك الخروج من هذا الدين جملة ، وهناك النار التي أعدت للكافرين ! والمماحكة في هذا الأمر لا تخرج عن كونها مماحكة .. والجمع في هذه الآيات بين النهي عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله ، وإلى انقضاء النار التي أعدت للكافرين ، ليس عبثاً ولا مصادفة إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها في تصورات المسلمين .

وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا ويتقوى الله .. فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى ولتحقيق منهج الله في حياة الناس .. ولقد سبق الحديث في الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات البشرية ، وويلاته البشعة في حياة الإنسانية . فلنرجع إلى هذا البيان هناك ، لنذكر معنى الفلاح هنا ، واقترانه بترك النظام الربوي المقيت ! ثم يجيء التوكيد الأخير :

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » ..

وهو أمر عام بالطاعة لله والرسول ، وتعليق الرحمة بهذه الطاعة العامة . ولكن للتعقيب به على النهي عن الربا دلالة خاصة هي أنه لا طاعة لله وللرسول في مجتمع يقوم على النظام الربوي ، ولا طاعة لله وللرسول في قلب يأكل الربا في صورة من صورته . وهكذا يكون ذلك التعقيب توكيداً بعد توكيد .

وذلك فوق العلاقة الخاصة بين أحداث المعركة التي خولف فيها أمر رسول الله ﷺ وبين الأمر بالطاعة لله وللرسول ، بوصفها وسيلة الفلاح ، وموضع الرجاء فيه .

ثم لقد سبق في سورة البقرة — في الجزء الثالث — أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا ، والحديث عن الصدقة بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية في النظام الاقتصادي ، وبوصفهما السمتين البارزتين لنوعين متباينين من النظم : النظام الربوي . والنظام التعاوني .. فهنا كذلك نجد هذا الجمع في الحديث عن الربا والحديث عن الإنفاق في السراء والضراء ..

فبعد النهي عن أكل الربا ، والتحذير من النار التي أعدت للكافرين ، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح .. بعد هذا يجيء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة ، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض (أعدت للمتقين) .. ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو : « الذين ينفقون في السراء والضراء » — فهم الفريق المقابل

للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة — ثم نجيء بقية الصفات
والسمات :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات
والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون في السراء والضراء .
والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين .
والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا
لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ — ولم يصروا على ما
فعلوا وهم يعلمون .. » ...

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات في صورة حسية
حركية .. يصوره سباقاً إلى هدف أو جائزة تنال :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » . « وجنة عرضها
السماوات والأرض .. سارعوا فهي هناك : المغفرة والجنة .
« أعدت للمتقين » .

ثم يأخذ في بيان صفات المتقين :

« الذين ينفقون في السراء والضراء .. »

فهم ثابتون على البذل ، ماضون على النهج ، لا تغيرهم
السراء ولا تغيرهم الضراء . السراء لا تبطريهم فتلهيهم والضراء
لا تضجرهم فتنسيهم . إنما هو الشعور بالواجب في كل حال ،
والتحرر من الشح والحرص ، ومراقبة الله وتقواه .. وما يدفع
النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال بفطرتها .. ما يدفع النفس

الى الإنفاق في كل حال ، إلا دافع أقوى من شهوة المال ،
وربقة الحرص ، وثقلة الشح ..دافع التقوى . ذلك الشعور
اللطيف العميق ، الذي تشف به الروح وتخلص ، وتنطلق من
القيود والأغلال ..

ولعل للتنويه بهذه الصفة مناسبة خاصة كذلك في جو هذه
المعركة . فنحن نرى الحديث عن الإنفاق يتكرر فيها ، كما نرى
التنديد بالممتنعين والمانعين للبلد – كما سيأتي في السياق القرآني
مكرراً كذلك . مما يشير الى ملايسات خاصة في جو الغزوة ،
وموقف بعض الفئات من الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله .
» والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس « .

كذلك تعمل التقوى في هذا الحق ، بنفس البواعث ونفس المؤثرات
فالغيظ انفعال بشري ، تصاحبه أو تلاصقه فورة في الدم ، فهو
إحدى دفعات التكوين البشري ، وإحدى ضروراته ، وما يغلبه
الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ؛
ولإ بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع الى أفق أعلى وأوسع
من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهي وحدها لا تكفي .
فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن؛ فيتحول الغيظ الفائر
إلى إحنة غائرة ؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن
الغيظ والغضب لأنظف وأظهر من الحقد والضغن .. لذلك
يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس
المتقين .. إنها العفو والسماحة والانطلاق ..

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ، وشواظ يلفح القلب ، ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والفرقة في آفاق النور والبرد في القلب ، والسلام في الضمير .

« والله يحب المحسنين » ..

والذين يهودون بالمال في السراء والضراء محسنون . والذين يهودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون .. والله « يحب » المحسنين .. والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير ، الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم ..

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين ، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه . وتنبثق الرغبة الدافئة في هذه القلوب .. فليس هو مجرد التعبير الموحي ، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير !

والجماعة التي يحبها الله ، وتحب الله .. والتي تشيع فيها السماحة والبسر والطلاقة من الإحن والأضغان .. هي جماعة متضامنة ، وجماعة متآخية ، وجماعة قوية . ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق !

ثم نتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ — ولم يصروا

على ما فعلوا وهم يعلمون « ..

يا لسماحة هذا الدين ! إن الله — سبحانه — لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته — سبحانه وتعالى — معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا :

إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » .. والفاحشة أشنع الذنوب وأكبرها ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهون إليها ، من رحمة الله . ولا تجعلهم في ذيل القافلة . قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة .. مرتبة « المتقين » .. على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته. أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتجحوا بالمعصية في غير تخرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله ، والاستسلام له في النهاية . فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقله الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة ، وتهيج به فورة اللحم والدم فيتزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع . يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى

طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه حين يرتكب الفاحشة ..
المعصية الكبيرة .. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم
تسقط ، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف ، وأن صلته
بالله ما تزال حية لم تدبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطيء وأنه له رباً
يغفر .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب
بخيّر إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق ، ممسك بالعروة لم
ينقطع به الحبل ، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل
في النهاية ما دامت الشعلة معه ، والحبل في يده ما دام يذكر الله
ولا ينساه ، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته .

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب
التوبة ، ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه ! ولا يدعه مطروداً خائفاً
من المآب .. إنه يطعمه في المغفرة ، ويدله على الطريق ، ويأخذ
بيده المرتعشة ، ويسند خطواته المتعثرة ، وينير له الطريق ،
ليفيء إلى الحمي الآمن ، ويثوب الى الكنف الأمين .

شيء واحد يتطلبه ألا يحف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى
الله .. وما دام يذكر الله . ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي .
ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي . ما دام في قلبه ذلك الندى
البليل .. فسيطلع النور في روحه من جديد وسيؤوب إلى الحمي
الآمن من جديد ، وستنبت البصرة الهامدة من جديد .

إن طفلك الذي يخطيء ويعرف أن السوط — لا سواء —
في الدار .. سيروح أبقاً شاردأ لا يثوب الى الدار أبداً . فأما إذا

كان يعلم أن الى جانب السوط يداً حانية ، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . فإنه سيعود !

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب الثقله رفرقة ، وبجانب التزوة الحيوانية أشواقاً ربانية .. فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود ، ويربت عليه في لحظة العثرة ليلحق به الى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ولا يصبر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول ﷺ يقول : « ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة » (١) .

والإسلام لا يدعو — بهذا — إلى الترخص ، ولا بمجد العائر الهابط ، ولا يهتف له بحمال المستنقع ! كما تهتف « الواقعية » ! إنما هو بقل عثرة الضعف ، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء ، كما يستجيش فيها الحياء ! فالمغفرة من الله — ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ — تحجل ولا تطمع . وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة في وجوههم الأسوار !

١ — رواه أبو داود والترمذي والبخاري في مسنده من حديث عثمان بن واقد . وفي سنده صحابي مجهول ولكن ابن كثير في تفسيره صححه . وقال : « حديث حسن » .

وهكذا يجمع الإسلام بين المتناف للبشرية إلى الآفاق العلاء ،
والرحمة لهذه البشرية التي يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء
أبدأ ، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها (١) .

... هؤلاء المتقون ما لهم ؟

« أولئك لهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين » ..

فهم ليسوا سلبين بالاستغفار من المعصية . كما أنهم ليسوا
سلبين بالإتفاق في السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن
الناس . إنما هم عاملون « ونعم أجر العاملين » .. المغفرة من
ربهم ، والجنة تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحسب الله ..
فهناك عمل في أغوار النفس ، وهناك عمل في ظاهر الحياة .
وكلاهما حركة ، وكلاهما نماء .

وهناك الصلة بين هذه السمات كلها وبين معركة الميدان
التي يتعقبها السياق . وكما أن للنظام الربوي - أو النظام التعاوني
أثره في حياة الجماعة المسلمة وعلاقته بالمعركة في الميدان ،
فكذلك لهذه السمات النفسية والجماعية أثرها الذي أشرنا إليه
في مطلع الحديث .. فالانتصار على الشح ، والانتصار على الغيظ
والانتصار على الخطيئة ، والرجعة إلى الله وطلب مغفرته ورضاه

١ - يراجع بتوسع فصل : « سلام الضير » في كتاب : « السلام العالمي
والإسلام » ...

كلها ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة . وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح ! وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته . ففي هذا تكون العداوة ، وفي هذا تكون المعركة ، وفي هذا يكون الجهاد . وليس هنالك أسباب أخرى يعادي فيها المسلم ويعارك ويجاهد . فهو إنما يعادي الله ، ويعارك الله ، ويجاهد الله ! فالصلة وثيقة بين هذه التوجيهات كلها وبين استعراض المعركة في هذا السياق .. كما أن الصلة وثيقة بينها وبين الملابس الخاصة التي صاحبت هذه المعركة . من مخالفة عن أمر رسول الله ﷺ ومن طمع في الغنيمة نشأت عنه المخالفة . ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد الله بن أبي ومن معه . ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولي من تولى — كما سيرد في السياق — ومن غش في التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى الله ، وسؤال بعضهم : « هل لنا من الأمر شيء ؟ » وقول بعضهم : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا » ..

والقرآن يتناول هذه الملابس كلها ، واحدة واحدة ، فيجملوها ، ويقرر الحقائق فيها ، ويلمس النفوس لمسات موحية تستجيشها وتحييها .. على هذا النحو الفريد الذي نرى نماذج منه في هذا السياق .

مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ

« فَبُظْلِمَ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبَصَدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ - وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » (١٦١).

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه . وأكلهم أموال الناس بالباطل . وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » .

فيضيف إلى ما سبق من منكرهم هذه المنكرات الجديدة : الظلم . والصد الكثير عن سبيل الله ، فهم ممعنون فيه ودائبون عليه . وأخذهم الربا - لا عن جهل ولا عن قلة تنبيه - فقد

نہوا عنه فأصروا عليه ! وأكلهم أموال الناس بالباطل . بالربا وبغيره من الوسائل .

بسبب من هذه المنكرات ، ومما أسلفه السياق منها . حرمت عليهم طبييات كانت حلالاً لهم . وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً .

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم ، وفضح تملاتهم وعدم الاستجابة للرسول وتعتهم ، ودمغهم بالتعنّت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم ، ويسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء في حق الأنبياء والصالحين : بل قتلهم والتبجح بقتلهم ! وتسقط بذلك وتتهوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم . وتعرف الجماعة المسلمة - ما ينبغي أن تعرفه الأمة المسلمة في كل حين - عن طبيعة اليهود وجبلتهم ، ووسائلهم وطرائقهم ، ومدى وقوفهم للحق في ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبى فيهم . فهم أعداء الحق وأهله ، وللهدى وحملته . في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم . مع أصدقائهم ومع أعدائهم .. لأن جبلتهم عدوة للحق في ذاته ، جاسية قلوبهم ، غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة ! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم ..

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق ، ليقصر على الجماعة المسلمة الأولى في المدينة ، فالقرآن هو كتاب هذه

الأمة ما عاشت ، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها ، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها ، وإذا استرشدت به أرشدها ، وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود . فدانت لها رقابهم . . ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود ، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة ، وهي غافلة عن كتابها . . القرآن . . شاردة عن هديه . ملقية به وراءها ظهيراً ! متبعة قول فلان وفلان !! وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود وقهر يهود ، حتى تثوب إلى القرآن . .

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود . حتى ينصف القليل المؤمن منهم ، ويقرر حسن جزائهم . وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق . ويشهد لهم بالعلم والإيمان . ويقرر أن الذي هداهم إلى التصديق بالدين كله : ما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله . هو الرسوخ في العلم وهو الإيمان .

مِنْ سُورَةِ الرُّومِ

«فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)
«وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا
عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُضِلُّونَ» (٣٩)

وما دام المال مال الله ، أعطاه رزقاً لبعض عباده ، فالله
صاحب المال الأول قد قرر قسماً منه لفئات من عباده ، يودّ بها
إليهم من يضع يده على ذلك المال . ومن ثم سماها حقاً . ويذكر
هنا من هذه الفئات « ذا القربى والمسكين وابن السبيل » .
ولم تكن الزكاة بعد قد حددت ولا مستحقوها قد حصروا .
ولكن المبدأ كان قد تقرر . مبدأ أن المال مال الله ، بما أنه هو

الرازق به ، وأن لفئات من المحتاجين حقاً فيه مقررأ لهم من صاحب المال الحقيقي ، يصل إليهم عن طريق واضح اليد على هذا المال . . وهذا هو أساس النظرية الإسلامية في المال . وإلى هذا الأساس ترجع جميع التفريعات في النظرية الاقتصادية للإسلام . فما دام المال مال الله ، فهو خاضع إذن لكل ما يقرره الله بشأنه بوصفه المالك الأول ، سواء في طريقة تملكه أو في طريقة تنميته ، أو في طريقة إنفاقه ، وليس واضح اليد حراً في أن يفعل به ما يشاء .

وهو هنا يوجه أصحاب المال الذين اختارهم ليكونوا أمناء عليه إلى خير الطرق للتنمية والفلاح . وهي إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، والإنفاق بصفة عامة في سبيل الله :

« ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون »

وكان بعضهم يحاول تنمية ماله بإهداء هدايا إلى الموسرين من الناس ، كي ترد عليه الهدية مضاعفة ! فبين لهم أن هذا ليس الطريق للنماء الحقيقي : « وما أثبت من ربأ ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله » . . هذا ما تذكره الروايات عن المقصود بالآية وإن كان نصها بإطلاقه يشمل جميع الوسائل التي يريد بها أصحابها أن ينمو أموالهم بطريقة ربوية في أي شكل من الأشكال^(١) . . وبين لهم في الوقت ذاته وسيلة

١ - غير أن هذه الطريقة لا حرة فيها كحرمة الربا المعروف ، غير أنها ليست طريقة النماء الزكي الكريم .

النماء الحقيقية :

« وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

هذه هي الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال : إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولا عوض من الناس . إنما هي لإرادة وجه الله ، أليس هو الذي ييسر الرزق ويقدر ؟ أليس هو الذي يعطي الناس ويمنع ؟ فهو الذي يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجهه ؛ وهو الذي ينقص مال المرايين الذين يبتغون وجوه الناس . . ذلك حساب الدنيا ، وهناك حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة . فهي التجارة الراجعة هنا وهناك !

الفهرس

الصفحة

٥	من سورة البقرة
٤٧	من سورة آل عمران
٦١	من سورة النساء
٦٤	من سورة الروم

يهدى عن دارالشريعة

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الأستاذ سيد قطب

- في ظلال القرآن
- مشاهد القيامة في القرآن
- التصوير الفني في القرآن
- الإسلام ومشكلات الحضارة
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- مهمة الشاعر في الحياة
- هذا الدين
- السلام العلى والإسلام
- معالم في الطريق
- دراسات إسلامية
- نحو مجتمع إسلامي
- في التاريخ فكرة ومناهج
- تفسير آيات الرأيا
- تفسير سورة الشورى
- كتب وشخصيات
- المستقبل لهذا الدين
- معركتنا مع اليهود
- معركة الإسلام والرأسمالية
- العدالة الاجتماعية في الإسلام

مكتبة الأستاذ محمد قطب

- الإنسان بين المادية والإسلام
- منهج الفن الإسلامي
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- معركة التقاليد
- في النفس والمجتمع
- التطور والثبات في حياة البشرية
- دراسات في النفس "الإنسانية"
- هل نحن مسلمون
- قبهات من الرسول
- شبهات حول الإسلام
- جاهلية القرن العشرين
- دراسات قرآنية
- مفاهيم ينبغي أن تصحح
- مذاهب فكرية معاصرة
- كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- تحت الطبع
- المستشرقون والإسلام

من كتب دار الشروق الإسلامية

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي	مصحف الشروق المفسر المبسر
الدكتور عبد المال سالم مكرم	محاضر تفسير الإمام الطبري
على مشارف القرن الخامس عشر الهجري	تحفة المصاحف وقمة التفاسير
الأستاذ ابراهيم بن علي الوديع	في أحجام مختلفة وطبعات متصلة لبعض الأجزاء
الرسالة الخالدة	تفسير القرآن الكريم
الأستاذ عبد الرحمن عرام	الإمام الأكبر محمود شلتوت
محمد رسولاً نبياً	الإسلام عقيدة وشريعة
الأستاذ عبد الرزاق نول	الإمام الأكبر محمود شلتوت
مسلمون بلا مشاكل	الفتاوى
الأستاذ عبد الرزاق نول	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام في مفترق الطرق	من توجيهات الإسلام
الدكتور أحمد حروة	الإمام الأكبر محمود شلتوت
العقوبة في الفقه الإسلامي	إلى القرآن الكريم
الدكتور أحمد فتحي هسي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي	الوصايا العشر
الدكتور أحمد فتحي هسي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الجرالم في الفقه الإسلامي	المسلم في عالم الاقتصاد
الدكتور أحمد فتحي هسي	الأستاذ مالك بن نبي
ملجل الفقه الجنائي الإسلامي	أنبياء الله
الدكتور أحمد فتحي هسي	الأستاذ أحمد بيجت
الفصاح في الفقه الإسلامي	نبي الإنسانية
الدكتور أحمد فتحي هسي	الأستاذ أحمد حسين
المدية في الشريعة الإسلامية	رهانية لا رهانية
الدكتور أحمد فتحي هسي	أبو الحسن علي الحسيني السدي
الإسراء والمعراج	الحجة في القراءات السبع
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي	تحقيق وتقديم الدكتور عبد المال سالم مكرم

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
 الدكتور عبد العظيم المطمعي
 أبيها الولد المحب
 الإمام العراقي
 الأدب في الدين
 الإمام العراقي
 شرح الوصايا العشر
 للإمام حسن البنا
 القرآن والسلطان
 الأستاذ مهدي هويدي
 حفايا الإبراء والمعراج
 الأستاذ مصطفى الكيك
 الخطابة وإعداد الخطيب
 الدكتور عبد الجليل شلي
 تأريخ القرآن
 الأستاذ إبراهيم الأبياري
 الإسلام والمبادئ المسعودة
 الدكتور عبد المنعم النمر
 سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١
 سلسلة أهل البيت ٦/١
 إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
 تأليف الدكتور علي عبد الله الدفاع
 تمريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
 مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد
 الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه
 الإسلامي
 الدكتورة سحر رشاد مها
 الأديان القديمة في الشرق
 دكتور رؤوف شلي

القضاء والقدر
 فضيلة الشيخ متولي الشراوي
 لهمايا إسلامية
 فضيلة الشيخ متولي الشراوي
 التعبير الفني في القرآن
 الدكتور بكري الشيخ أمين
 أدب الحديث النووي
 الدكتور بكري الشيخ أمين
 الإسلام في مواجهة الماديين والملحنيين
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 اليهود في القرآن
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 أيام الله
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 مسلمون وكفى
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 الدعوة الوهابية
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 قال الأولون - أدب ودين
 الأستاذ السيد أبو ضيف المدي
 قل يا رب
 الأستاذ السيد أبو ضيف المدي
 الإيمان الحق
 المستشار علي حريشة
 الجديد حول أسماء الله الحسنى
 الأستاذ عبد المغني سعيد
 الجوائز والمنوع في الصيام
 الدكتور عبد العظيم المطمعي



في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الرىا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحو مجتمع إسلامي